

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مجلة

الغلسفة

مجلة أكاديمية محكمة تصدر عن كلية الآداب في الجامعة المستنصرية

AN ACADEMIC PEER-REVIEWED JOURNAL



ISSN:1136-1992

التقييم الدولي

DOI: 10.35284

المعرف الدولي



العدد 24 2021

الغلسفة

12/2021

مجلة الفلسفة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية يصدرها قسم الفلسفة

المجلة حاصلة على المعرف الدولي
تحت رقم prefix :10.35284

رئيس التحرير
د. رائد جبار كاظم

الهيئة العلمية الاستشارية

1. د. يمينى طريف الخولي – كلية الآداب – جامعة القاهرة- مصر.

2. د. عفيف حيدر عثمان - الجامعة اللبنانية – لبنان .

3-Professor: Juan Rivera Palomino- San Marcos – Peru

4. د. مصطفى النشار – كلية الآداب – جامعة القاهرة – مصر.

5. د. احمد الوشاح – كليات كليرمونت – كلية بيتزر- لوس انجلس – امريكا

6. د. احسان علي شريعتي – كلية الآديان – جامعة طهران – ايران

7. د. افراح لطفي عبد الله – كلية الآداب – جامعة بغداد – العراق

8. د. عامر عبد زيد الوائلي – كلية الآداب – جامعة الكوفة – العراق

9. د. محمد حسين النجم - كلية الآداب – الجامعة المستنصرية – العراق

البريد الالكتروني

art.phi_magazine@uomustansiriyah.edu.iq

الترقيم الدولي: ISSN (1992-1136)

فهرست بدار الكتب والوثائق وايداعها تحت رقم (742) لسنة (2002)



العدد الرابع والعشرون

كانون الاول

٢٠٢١/١٢

مدير التحرير

أ.م.د. حيدر ناظم محمد

كلية الآداب - المستنصرية

سكرتير التحرير

م.د. أسماء جعفر فرج

كلية الآداب - المستنصرية

الاشراف اللغوي

م.د. منار صاحب

كلية الآداب/المستنصرية

اخراج وتنضيد

م.م. أنير محمد مجيد

مسؤول الموقع الالكتروني

المهندسة

ريهام ماجد عبد الكريم

نصميم وطباعة

مكتب الأثير

للنشر والطباعة

الفلسفة

مجلة علمية محكمة يصدرها قسم الفلسفة

المحتويات

كلمة رئيس التحرير

- ٢٢-١ يوسف بن عدي مفهوم الواحد قراءة في آراء الفارابي وابن رشد
- ٤٢-٢٣ أ.د. نائلة أحمد نائل الجبوري
صفا مصطفى مهدي الأساليب التنظيمية الدعوية للفكر الإسماعيلي
- ٦٠-٤٣ أ.د. رحيم محمد الساعدي
م.م. حيدر عبد السادة جودة أنسنة الوحي
قراءة نقدية في موقف الخطاب الحدائوي للنص الديني
- ٨٠-٦١ م.د. منى فليح حسين مفهوم العقل عند الكندي والفارابي
- ١٠٠-٨١ أ.م.د. باقر ابراهيم الزبيدي المثالية الألمانية وتأويلاتها للمسيحية
- ١٢٠-١٠١ أ.م.د. سالي محسن لطيف فلسفة العقل عند نيكولاس مالبرانش
- ١٢٩-١٢١ أ.م.د. حيدر ناظم محمد
حوراء حميد محسن الليبرالية السياسية عند براتراند رسل
- ١٣٠-١٣١ م.د. هجران عبد الإله احمد القناع-قراءة في ضوء فلسفة نيتشه
- ١٤٦-١٣١ أ.م.د. محمد حسين النجم
د. سحر علاوي عزوز دور الابطال في بناء الدول عند هيردوت
- ١٦٤-١٤٧ أ.م.د. احمد عبد خضير
م.م. اسماء جعفر حرية الإرادة عند توما الأكويني
وجون دنس سكوت



العدد

الرابع والعشرون
كانون الاول
٢٠٢١/١٢

عنوان المراسلة
العراق-بغداد-الجامعة المستنصرية
كلية الاداب/قسم الفلسفة

ص.ب: ١٤٠٢٢

تلفون: ٤١٦٨١١٩٨

art.phi_magazine@
uomustansiriyah.edu.iq

فلسفة العقل عند نيكولاس مالبران

أ.م.د. سالي محسن لطيف^١

الملخص:

يعد مالبران من أبرز الفلاسفة المحدثين الذين قدموا أفكار (دينية-معرفية- أخلاقية)، حيث تأثر بكل من (أوغسطين- ديكارت- سبينوزا).

وجعل فكرة (الله) الفكرة الأساسية لبناء هرمه الفلسفي، فأكد على ذلك النور المضيء في جميع المخلوقات ومنها الإنسان الذي تميز عن سائر المخلوقات بامتلاكه (العقل) فهو قادر على بناء أفكار في داخل هذه الثروة التي يمتلكها، نظرا لما يمتلك عقله من قدرات لا نهاية لها وضعها الله فيه.

ومن هنا وضع مالبران فلسفته العقلية في الدين والمعرفة وكذلك في الأخلاق، على أساس أن العقل يحاول دائماً الارتقاء والتطور في سلم الحياة، كما انه يمتلك من القدرات التي تؤهله لكل فعالياته العقلية لنسيج أفكار تسمو به للسفر في معجازه الروحي تجاه الله. ولبيان ذلك كله .

قسمت البحث الى خمسة محاور: **المحور الأول:** كان بعنوان (مالبران ومساراته الفلسفية)، تحدثت فيه عن تأثيراته الفكرية في بداية مشواره الفلسفي وكيف شق طريقه.

والمحور الثاني: كان بعنوان (فلسفة العقل) حيث تناولت فيه معنى فلسفة العقل والعلاقة بين الفلسفة والعقل.

والمحور الثالث : كان بعنوان (العقل والدين) تحدثت فيه عن علاقة العقل بالدين وكيف أسس (مالبران) العقل على أساس الدين الذي يميز بين الحق من الباطل والخير من الشر.

المحور الرابع: كان بعنوان (العقل والمعرفة) تحدثت فيه عن العقل هو أساس المعرفة والتي من خلالها نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي.

المحور الخامس: كان بعنوان (العقل والأخلاق) حيث تحدثت فيه كيف أن للإنسان إرادة حرة أوجدها الله فيه وهو يستطيع بهذه الإرادة أن يختار ما هو صالح له عن طريق قدراته العقلية.

ولقد توصلت في نهاية بحثي إلى أن العقل قادر على إدراك بواطن الأشياء من خلال النور الإلهي الذي يقذفه الله فيه.

وأن العقل يمتلك حرية الاختيار في تحديد مصيره وبالتالي يصل من خلال هذه الإرادة الحرة إلى السعادة. وهذه هي فلسفته العقلية التي توصل إليها.

Abstract**Nicholas Malebranche's philosophy of mind Sally Mohsen Latief**

Malebranche is considered one of the most prominent modern philosophers who presented ideas (religions, epistemological moral), as he was influenced by (Augustine- Descartes- Spinoza). He is able to build ideas within this wealth that he possesses, due to the endless abilities that God has placed in his mind.

From here Malebranche put your mental philosophy in religion and Knowledge as well as morals, on the basis that the mind is always trying to rise and develop in the ladder of life, and it also possesses the capabilities that qualify it for all their mental activities to weave ideas that transcend it to travel in the Spiritual ascension towards God.

I divided there arch into five axes: The first axis was entitled (Malebranche and his philosophical Paths), in which I talked about his intellectual influences at the beginning of his philosophical journey and how he made his way. And the second philosophy of mind In it I talked about the meaning of philosophy of mind and the relationship between philosophy and reason

The third photograph was entitled (mind and Religion) under it about the relationship of the mind with religion.

And how Malebranche established the mind on the basis of religion that distinguishes right from falsehood and good from evil. The fourth axis entitled (reason and Knowledge), work is the basis of knowledge and through which we form ideas about our world, external, and the fifth photograph was entitled (the mind and Ethics), in which I talked about how a person has free will that God inflicted in him, and through it he can choose what is good for him through his mental abilities.

At the end of my research, I concluded that the mind is able to comprehend things through the divine light that God removes in me, and the mind also has the freedom of in me, and the mind also has the freedom of choice in determining its destiny and thus reaches through this free will to happiness. And this mental philosophy that come up with.

المقدمة

يعد مالبرانش من أبرز الفلاسفة المحدثين الذين قدموا أفكار (دينية - معرفية - أخلاقية)، فقد تأثر (مالبرانش) بكل من (أوغسطين - ديكارت - سبينوزا). إذ انه جعل فكرة (الله) الفكرة الأساسية لبناء هرمه الفلسفي، فأصر على وجود ذلك النور المضيء في جميع المخلوقات ومنها الإنسان، وتميز عن سائر المخلوقات بامتلاكه (العقل) فهو قادر على بناء أفكار في داخل هذه الثروة التي يمتلكها نظراً لما يمتلكه من قدرات لانهاية لها وضعها الله فيه.

كما أن الله قد أنار لتلك الروح التي يمتلكها الجسد الإنساني التي شملت كل أرجاء الكون. من هنا وضع (مالبرانش) فلسفته العقلية في الدين والمعرفة وكذلك في الأخلاق على أساس أن العقل يحاول دائماً الارتقاء والتطور في سلم الحياة، كما أنه يمتلك من القدرات التي تؤهله لكل فعالياته العقلية لنسج أفكار تسمو به للسفر في معارجه الروحي تجاه الله، فما هي الطرق التي أقتفاها العقل للوصول الى هذه المكانة من الناحية الدينية والمعرفية والأخلاقية؟ وهل الإنسان يمتلك حرية الاختيار في تحقيق ما يريد؟ وما كان هدف (مالبرانش) من هذه الفلسفة العقلية؟

من هنا نشأت رغبتني في البحث في هذا الموضوع نظراً لأن (مالبرانش) أهتم بالعقل وكيف يمكن استخدام قدراته أو برمجته على الرغم من الصعوبة التي واجهتها في قلة المصادر التي كتبت عن هذا الفيلسوف، لكنني اعتمدت بشكل أساسي على كتابه (البحث عن الحقيقة) المترجم الى اللغة الإنكليزية وكتاب (مالبرانش والفلسفة الإلهية) لرواية عبد المنعم.

لقد قسمت البحث الى خمسة محاور، (المحور الأول): كان بعنوان (مالبرانش ومساراته الفلسفية)، حيث تحدثت فيه عن تأثيراته الفكرية في بداية مشواره الفلسفي وكيف شق طريقه. (المحور الثاني): تحدثت فيه عن معنى فلسفة العقل والعلاقة بين الفلسفة والعقل. أما (المحور الثالث) حيث كان عنوانه (العقل والدين)، تحدثت فيه عن علاقة العقل بالدين وكيف أسس (مالبرانش) العقل على أساس الدين الذي يميز الحق من الباطل والخير من الشر. (المحور الرابع): كان بعنوان (العقل والمعرفة)، فالعقل هو أساس المعرفة والتي من خلالها نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي. (المحور الخامس): كان بعنوان (العقل والأخلاق) حيث تحدثت فيه كيف أن للإنسان إرادة حرة أوجدها الله فيه وهو يستطيع بهذه الإرادة أن يختار ما هو صالح له عن طريق قدراته العقلية. ولا بد لي من الإشارة الى ان فكر مالبرانش توجه بالدين، فكان همه الوحيد بيان أن العقل الانساني وكل ما يتولد فيه من أفكار منبثقة من الله وقدرته اللانهائية.

المحور الأول: مالبرانش^{٢*} ومساراته الفلسفية:

كانت مسارات (مالبرانش) الفلسفية تتوج بالدين من خلال مؤثراته التي تأثر بها في صغره وكذلك من خلال تأثره بالمسيحية وبالقديس (أوغسطين) وما طرحه (ديكارت) من أفكار عقلية تهدف للوصول الى اليقين.

فالفلسفة مع (مالبرانش) هي فلسفة فكرياً أكثر من كونها فلسفة مفكر، فهو مسلم بالكوجيتو^{٣*} فهو يقول: « اذ لم تكن الدائرة التي تشاهدها شيئاً عندما أفكر فيها لما فكرت في شيء»، فوجدنا يتحول في عالم جثماني وكذلك تنتقل روحنا من دون انقطاع في عالم معقول. (جان فال، ١٩٦٨، صفحة ٣٥).

لهذا نجد ان حياته العقلية ازدهرت بعد أن درس فلسفة (ديكارت)، اذ انه قرأ كتابه (الإنسان) لديكارت، وأيقن أن رسالته الحقيقية في الحياة هي (الفلسفة) ودراسة العلوم الفيزيائية والرياضية والميكانيكية، فدرس الرياضيات الميكانيكا والفيزياء والفسيولوجيا إضافة الى دراسته للميتافيزيقا والأخلاق (بدوي، صفحة ٤٢٩). فكانت الفكرة عند مالبرانش كما هي عند ديكارت واقعة روحية مستقلة عنها لكنها حاضرة دائماً في (عقولنا) والأفكار هي التي تمكنا من امتثال الموضوعات (بدوي، موسوعة الفلسفة، صفحة ٤٣١).

٢ نيكولاس مالبرانش (Niicolas Malebranch) : هو فيلسوف فرنسي ولد في باريس سنة (١٦٣٨) أنحدر من أسرة عريقة اجتمعت فيها نبالة العدالة مع البرجوازية الكاثوليكية تنتمي والدته الى أسرة تغلب عليها النزعة الدينية الصوفية ،والده كان أمين صندوق لمزارع كبيرة . توفي وهو سكرتير لـ (لويس الرابع عشر) . كان مالبرانش مريض ومعتل صحياً أدى به الى الانطواء النفسي وهذا ما جعله يملك في منزله مع أسرته فكان قريباً من الكنيسة في باريس فتعلم في بيته وتحت إشراف والدته، وهذا التوجه الديني انعكس فيما بعد على أفكاره . وبمرور الوقت تحسنت صحته والتحق بالمدرسة الثانوية . ودرس الفلسفة ومن ثم دخل كلية اللاهوت في جامعة السوربون . كان مالبرانش يعيش حياة بسيطة تنقل في عدة دول والتقى بكبار شخصيات عصره من العلماء والفلاسفة المشهورين الذي أعجبوا بشخصيته وسمو أخلاقه فكانت له شخصية جذابة مؤثرة. توفي مالبرانش سنة (١٧١٥) وهو في عمر السابعة والسيعون. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج ٢، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، (د.ت)، ص ٤٢٩ وأيضاً رواية عبد المنعم عباس، مالبرانش والفلسفة الإلهية، تقديم: محمد علي أبو ريان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص ٣٨. أما عن إنجازاته الفلسفية فكانت أهمها (١) في البحث عن الحقيقة عام (١٦٧٥) . (٢) البحث عن الحقيقة والنعمة عام (١٦٨٠) . (٣) تأملات مسيحية عام (١٦٨٧) . (٤) بحث في علم الأخلاق عام (١٦٨٨) . (٥) محاورات بين فيلسوف مسيحي وفيلسوف صبي عام (١٧٠٨)، وكان كتابه (البحث عن الحقيقة) من أهم وأجمل الكتب التي طرحها فهو يتحدث فيه عن طبيعة العقل الإنساني. فرانسو أديدال : معجم الفلسفة الميسر ، ت: جورج سعيد ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٠٧.

٣ ** الكوجيتو الديكارتي ما هو إلا محاولة تتمثل في إقامة تقابل بين الذات المفكرة من جهة والعالم بأسره من جهة أخرى. رنيه ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة: سفيان سعد الله ، سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١، ص ٢٨.

وسار (مالبراناش) ايضاً مسار (أوغسطين)^٤ حيث اعتقد أنه لا سبيل الى الفهم بغير الإيمان وبهذا أقتفى طريقه فرأى أن الإيمان هو طريق العقل والفهم، وأن الدين هو منبع الحقيقة التي يستحيل بلوغها بدون الإيمان (رواية عبدالمنعيم عباس ، صفحة ١٥٣). ووصل الى إدراك هذه الحقيقة من خلال تصريحه بأن الأشياء المتناهية لا قدرة لها على الفعل سواء أكانت عقولاً أو أجساماً، وهذه النظرة تدل على تأثره بالفلسفة المسيحية (فؤاد كامل وآخرون، ١٩٨٣، صفحة ٤٥٠).

ولهذا أعتقد أنه لا حاجة الى ضمان صدق الأفكار الجلية من حيث إننا نراها في الله ذاته، فمبدأ اليقين يكون من خلال (اتحاد العقل بالله) (The Union of the With God) (كرم، صفحة ١٠٠).

فكانت فلسفته تتلخص في: « ما من شيء إذ تأملناه كما ينبغي إلا دنا الى الله » (كرم، ١٩٧٧، صفحة ٩٨).

جاءت هذه الصياغة وفقاً لنظرة عقلية عميقة، فالعقل الذي نلجأ إليه -بحسب اعتقاد مالبراناش- والذي نحتكم إليه عندما نخوض في باطن أنفسنا هو (عقل كلي) (The Whole mind) (بدوي، صفحة ٤٣١). فالعقل عنده « لا يفهم شيئاً إلا برؤية في فكر اللانهائي التي لديه، وانه لخطأ أن نظن ما ذهب إليه فلاسفة كثيرون من أن فكرة اللانهائي قد تكونت من مجموعة الأفكار التي تكونها الأشياء الجزئية، بل العكس هو الصحيح، فالأفكار الجزئية تكتسب وجودها من فكرة اللانهائي كما أن المخلوقات فيها اكتسبت وجودها من الكائن الإلهي الذي لا يمكن أن يتفرع عن وجودها. يستحيل أن يفهم العالم بذاته، ولا يمكن فهمه إلا بإدراكنا إياه في الكائن الذي يحتويه، فإن لم نر الله فإننا لن نرى شيئاً آخر» (زكي نجيب وأحمد أمين، ٢٠١٩، صفحة ٦٩).

ومن خلال كل ما ذكرناه نرى ظهور ثلاثة اتجاهات هامة في عصر النهضة، والتي أثرت بشكل كبير على فكر (مالبراناش) وهي: (١) نزعة الشك الفلسفية. (٢) نزعة الإيمان. (٣) النزعة العقلانية، والتي حاولت ان تتوسط مذهبي الشك والإيمان وهي التي سادت في القرن السابع عشر، وهذا ما أثر بشكل كبير على مسار (مالبراناش) الفكري في ظل هذه النزعات ومن ثم أنطلق الى صياغة فلسفته (عبدالمنعيم، صفحة ٨٢).

اذن هو تأثر بديكارت من الناحية المعرفية وتأثر بأوغسطين من الناحية الدينية لكنه

٤ * كانت مهمة الفكر في العصر الوسيط الذي انبثق منه (القديس أوغسطين) هو التوفيق أكثر من اهتمامه بالخلق والإبداع، ومن هنا انحصر الفكر في دائرة اللاهوت وأرجع كل شيء الى الله، وهذا الطابع اللاهوتي حازم من قبل الكنيسة، وهنا وجدنا أوغسطين قد دعا الى الإيمان في سبيل الفهم، وهنا تلاشت دائرة العقل في دائرة اللاهوت وأصبح كل تفكير فلسفي وكل فهم عقلي هو تفكير ديني لمعاني. ورواية عبد المنعم: مالبراناش والفلسفة الإلهية، ص ٦٧.

توصل بعد ذلك الى أن الله هو الذي أوجد في عقولنا كل القدرات التي نصل من خلالها لإدراك الحقائق.

فالعقل الذي أراده (مالبرانش) أن يكون حر يتضمن معان أو نماذج روحية للأشياء ، بحيث نستطيع أن نميز من بينها (علاقات مقدار وعلاقات كمال) تتعلق الأولى بالعالم النظري والثانية تتمثل في النظام الدائم الذي ترجع إليه الهوية في جميع أفعالها وينسحب هذا النظام أيضاً على العقول بل يعد قانوناً أولاً لها في تقديرها وفي محبتها للأشياء ، فالعقل هو نداء الاله في النفوس ومن لا يستجيب لأوامره ونواهيه يصبح عرضة للخطأ ، فيحكم على الأشياء بعقله الجزئي وليس بعقل الاله الكلي الموجود به ، والذي يمثل غطاءً إلهياً شخصياً في النفوس يمكن من خلاله الكشف عن نظام وكمال الوجود (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨١).

وبهذا كان هدف (مالبرانش) من فلسفته العقلية هو أن يصل العقل الإنساني الى تلك القدرة الفائقة والتي تشبه الى حد بعيد (التفكير الإلهي) من حيث أن العقل هو الذي يرى الحقيقة ويريد الوصول إليها (المصدر نفسه، صفحة ١٦٠).

وبهذا يمكننا القول إن (مالبرانش) من خلال سياسته الفكرية أستطاع أن يصوغ مذهبه ومساره الفكري من خلال الربط بين الفيزيكا الديكارتية (Deiascarte sphysiss) التي ترى الأشياء كما تمثلها وتظهر ما عندنا من أفكار واضحة و (ميتافيزيكا أوغسطين) (Au- gustine metaphysics) التي ترى الأفكار بشكل واضح ، وكان لهذا الربط أثر روحي على مساره الفكري والعقلي (مالبرانش والفلسفة الالهوية، صفحة ٢١٠).

المحور الثاني: فلسفة العقل.

تعد فلسفة العقل فرع من فروع الفلسفة ، والفلسفة هي العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، وفي الفلسفة الحديثة أصبحت الفلسفة هي دراسة المبادئ الأولى التي تفسر المعرفة تفسيرا (عقليا) مثل الاخلاق والتاريخ وفلسفة العلوم وغيرها (صليباً، ج٢، ١٩٨٢، صفحة ١٦٠).

والفلسفة تدل أيضاً على دراسة العقل البشري من جهة ماهو متميز عن موضوعاته حيث أنقسمت الى قسمين: الأول يشمل البحث عن أصل المعرفة وقيمتها، وفي مبادئ اليقين وأسباب حدوث الأشياء. والثاني يشمل البحث في قيمة العمل (المصدر نفسه، صفحة ١٦١).

أما العقل فهو وسيلتنا الاساسية لفهم الحقائق حول حالاتنا العقلية وهي الاستبطان والطبيعة الدقيقة للتأمل الذاتي (Timothy oconnor & David robb, 2002, p. 4).

نستنتج من كل ما سبق ان العقل مرتبط بالفلسفة ارتباطاً وثيقاً بل هو منبع للفلسفة فعنه نتجت كل المعارف والعلوم.

فلسفة العقل اذن هي عملية التفكير وفلسفة العقل هي فرع من فروع الفلسفة تهتم بطبيعة الظواهر العقلية بشكل عام ودور الوعي والإحساس والإدراك والمفاهيم والعقل والمنطق والنية والاعتقاد والذاكرة وغيرها بشكل خاص، وتشمل أيضاً المسائل القياسية تلك المتعلقة بحرية الإرادة والهوية الشخصية ومشكلة العقل والجسم والعقول الأخرى (Inidgo, Copmanions of philosophy , 2002, p. 332).

المحور الثالث: العقل والدين

طرح (مالبراناش) فكرة الله وجعلها منبع لكل الأفكار، فنحن نحيا ونتحرك بقدرته، فهو يحدث الأفكار في النفس، والعالم الخارجي موجود لأن الله خلق السماء والأرض، وأن الله وحده هو الفعال، ومخلوقاته ليست عللاً، وإنما فيضاً منه (عبد المنعم الحنفي، صفحة ٤١٥).

ولو تفحصنا جيداً الولادة الحقيقية لفكرة (مالبراناش) في الدين لوجدنا أنه قد تأثر بفكر (ديكارت)، حيث ألتمز بثبات علم الموجود الديكارت في جميع أعماله العلمية وفي نظرياته حول العالم المادي بشكل عام. فعندما ألتمزت ديكارت إلى العقل وعلاقته بالله، وجد (مالبراناش) أن النقد المركزي الذي وجهه له يتعلق بطبيعة الأفكار، إذ كان الهدف المباشر للإدراك البشري -بحسب رأيه- هو فكرة في عقل الرب، فمثلاً عندما افتح عيني أنظر إلى شجرة على جانب الطريق، فما أراه في الواقع هو شيء في عقل الله الفكرة في عقل الله هي النموذج الذي تم إنشاء الشجرة بعده مع النتيجة الضرورية هو أن الشجرة تشبه هذه الفكرة ومن خلال معرفة الفكرة يمكننا معرفة الشيء المادي، ومن خلال نظرة (مالبراناش) هذه توصل إلى حقيقة الأفكار الموجودة في عقولنا بواسطة رؤية كل شيء في الله، وفي هذا نجد الأثر الاوغسطيني في اعتماد الإنسان على الله في كل شيء بما في ذلك حتى الإدراك (Malebranche, 1997, p. Xi).

إذن كان اعتقاده ينصب في أن عقلنا لديه في كثير من الأحيان أفكار حقيقية من الأشياء التي لم تكن موجودة أمامنا، فعلى سبيل المثال عندما نتخيل جبلاً ذهبياً، فمن الضروري أن تكون هذه الفكرة عن الجبل حاضرة حقاً في أذهاننا (Ibid, p. 217) عن طريق الحقيقة المطلقة.

والحقيقة المطلقة عند (مالبراناش) هو أن الله موجود قبل خلق العالم وأن لم يكن ليخلقه بدون معرفة أو أفكار وبالتالي فإن الأفكار التي كانت لديه عن العالم لا تختلف عن نفسه، بحيث أن جميع المخلوقات حتى الأكثر مادية، هي في الله وإن كان بطريقة روحية تماماً غير مفهومه لنا، لذا يرى الله في نفسه كما أنه يعرف وجودهما تمام المعرفة، لأنهما يعتمدان على وجودهما بمشيئته، ولأنه لا يمكن أن يجهل إرادته، فإن ذلك يستتبع أنه لا

يمكن أن يجهل وجودهما، وبالتالي فإن الله لا يرى في نفسه جوهر الأشياء فحسب، بل وجودها أيضاً (Ipid, p. 229).

وبهذا نجد الأثر الديكارتي واضحاً على فكر (مالبرانش) ولاسيما في مسألة (الأفكار الواضحة المتميزة)، فقد أكد على استحالة قيام المخلوقات بأي فعل بدون مساعدة إلهية مباشرة، وبذلك أستبعد أي قوة عليّة من النفوس أو الأجسام عندما أرجع كل عليّة حقيقية إلى الله واستند في هذه المحاولة إلى ثنائية (ديكارت) عن الفكر والامتداد التي يتصور معها استحالة أي تأثير من الناحية المنطقية للنفس على الجسد أو العكس (رواية عبد المنعم، صفحة ١٤١). لذا كان وجود الله عند (مالبرانش) وجوداً لامتناهياً لا يقتصر على مكان معين بل هو يشمل العالم كله ويكون وجوده روحاني يتحد بالأجساد بصورة روحية (Spiritually) فهو ليس جسداً إذ لو كان كذلك لما اتحد بالأجساد بمثل هذه الكيفية، فالإله ليس جسماً ممتداً، محدوداً في إطار المكان. فالامتداد الإلهي متساوٍ لامتناه (Infinite) كامل (Full) ^٥ في سعته وعظمته، كامل أيضاً في جميع الأجسام الممتدة وهنالك يمكننا القول إن «الله موجود في العالم بقدر وجود العالم فيه» (المصدر نفسه، الصفحات ٩٠-٩١).

فنحن إذن ندرك وجود الله بوصفه كائناً لامتناهياً وافترض وجوده الفعلي، واشتماله على جميع الكمالات الحقيقية، وبهذه الكيفية يجعل (مالبرانش) فكرة اللامتناهي من موضوع برهان إلى حدس أو رؤية لوجود الله، ويستحيل فهم أي معنى عن الله عن طريق أي مضمون متناهٍ معقول (الحيدري، ٢٠١٣، صفحة ١٧٨) فهو يؤثر في عقولنا كل الآثار نفسها التي أثر فيها، أو بالأحرى كان سيعرض على عقولنا التي أثر فيها، أي أنه سيعرض على عقولنا الأفكار نفسها التي لدينا في الواقع في عقولنا اليوم (Nicolas malebranche, 1997, p. 5).

وهو يقول في ذلك: «إن السيد الداخلي الذي ينير العقل لا يفعل شيء آخر، لقد علمني دقائق قليلة من الانتباه للأفكار الواضحة والمثيرة التي قدمها معلمي الداخلي للعقل حقائق أكثر وحررتني من أفكار خاطئة أكثر من كل ما قرأته في كتب الفلاسفة أو تعلمته من قبل أساتذتي» (Ibid, p. 34).

وهذا يعني أننا نرى أفكارنا في الله سواء كانت أفكار الماديات أو أفكار الحقائق الكلية الضرورية فإن الله محل الأفكار جميعاً وهو وحده معلوم بذاته وما من شيء نراه رؤية

^٥ وهنا يتبين لنا الأثر الكبير الذي تركه (ديكارت) على فكر (مالبرانش) إذ وجد ديكارت أن فكرة الكائن الكامل من الأفكار الفطرية الموجودة في العقل، أي فكرة اللامتناهي المتضمنة من فكرة المتناهي، وفكرة الكائن اللامتناهي إطلاقاً من تراكم الأشياء المتناهية الموجودة في الكون. رينه ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ص ١١٩-١٢١.

مباشرة إلا هو ذلك بأن الله ليس مرئياً بفكرة تمثله كما ذهب إليه (ديكارت) لأن هذا هو منشأ سائر الأشياء ، أما الله فهو الموجود اللامتناهي فليس يرى في شيء متناه بل في ذاته واسطه لأنه حاضر لجميع المخلوقات وحاضر لفكرنا، ونحن حاصلون دائماً على فكرة اللامتناهي ومتى نفكر في الله وجب أن يكون الله موجوداً (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، صفحة ٩٩).

فالله وحده هو العلة الحقّة التي تعلم ماذا تفعل وكيف تفعل والتي أثبت النظام في الكون، وربط بين المخلوقات وأخضعها بفعل قوانينها الكلية الثابتة، بعد أن سلبتها فاعليتها الذاتية وأسبغت عليها الفضل والنعمة والرحمة والعناية، فدبرت أمورها ووظفت موافقها وكيفت حوادثها بما يناسب قانون العلة الأولى ومعلولها (الحيدري، صفحة ١٨٢). ولقد توصل (مالبرانش) إلى هذا التحليل العميق في أن الله هو مركز الكون من خلال قوله : إننا إذا تأملنا بواطن أنفسنا وجدناها تؤكد لنا أننا كائنات مفكرة وأن عقولنا مليئة بالأفكار، ومن بين تلك الأفكار (فكرة الله) (God's idea) وهو الكائن الأكمل (Perfect being) كاملاً مطلقاً وأيضاً فكرة الامتداد بكل ما يتفرع عنها من الحقائق الرياضية والفيزيائية نحن لم نخلق هاتين الفكرتين بل وجدناها في عقولنا من الله ، ومعنى هذا أنهما كانتا في عقل الله قبل أن تحل في عقولنا وكل ما لدينا من أفكار محدودة واضحة منبعها من أصل إلهي (زكي نجيب وأحمد أمين، صفحة ٦٨) ، وهذا ما وجدناه في كتابه (البحث عن الحقيقة) (The Search Truth) حيث أكد على «أن الله هو الذي يمنحنا الشعور بالفرج عندما نعرف أننا في حالة يجب أن نكون فيها ، لكي نبقى فيها كي يتوقف قلقنا ، ولكي تتمتع بسعادتنا بالكامل من دون ترك أي شيء آخر ليحمل قدرة عقلنا ، لكنه يشعرنا بالحزن عندما ندرك أننا لسنا في الحالة التي يجب أن نكون فيها لكي لانبقى في تلك الحالة ، ولكي نبحث عن الكمال الذي ينقصنا ، لأن الله يحثنا باستمرار على الخير عندما نعرف أننا لا نمتلكه ، ويوقفنا هناك عندما نرى أننا نمتلكها بالكامل، وبالتالي يبدو من الواضح بالنسبة لي أنه لا المشاعر الفكرية للفرح والحزن ولا المشاعر المنطقية للفرح والحزن هي نتاج طوعي للعقل . لذلك يجب أن يتعرف عقلنا باستمرار على هذه القوة الخفية التي تملؤها بالخير» (The Search of truth, p. 311).

إذن المسألة الجوهرية التي طرحها (مالبرانش) في موضوع العقل والدين تُدرج تحت الإجابة على السؤال التالي: كيف يمكن لجوهر عقلي لا مادي أن يدرك الأجسام المادية؟ وجاءت الإجابة على هذا السؤال من خلال ما طرحناه سابقاً أن (مالبرانش) أكد على أن الله هو الذي غرس في عقولنا فكرة العالم المتجسد. وهذا العالم يوجد في الواقع ويتجاوب مع فكرتنا عنه، لأن أفكار الله التي هي مصدر إدراكنا الحسية هي أيضاً نماذج لعالم

الأشياء المادية (كامل، صفحة ٤٥٠).

وبهذا تصور (مالبران) أن الله هو المحط أو المدى الذي تشغله النفوس أنه متحد بنفوسنا بطريقة يمكن القول بأنه (مكان الأرواح كما يكون الفضاء هو مكان الأجسام المادية، وبالتالي يستطيع الذهن رؤية الموجودات التي يمثلها الله (رواية عبد المنعم، صفحة ٩٩). ولكن هذه العناية الإلهية للمخلوقات التي هي مشتقة وجودها من النور الإلهي وهي تعني الرؤية المباشرة لماهية الله المطلقة لأنه يستحيل على النفوس الجزئية رؤيتها بطريقة مباشرة، كما أنه يتمتع وجود معنى مثل أو نموذج لله، لذا من غير الممكن الإحاطة بالذات الإلهية لكنه يمكن معاينتها في حالة صلتها بالمخلوقات، أو في اشتراكها معها، لأنه لا يمكن معرفة الأشياء الحسية في الله إلا بواسطة معاينتها، وهنا يعبر (مالبران) عن وجود المخلوقات المادية والأرضية المتمثلة في الله بصورة روحية أي عن طريق معانيها (رواية عبد المنعم، صفحة ٩٥).

أي أن الاتحادين (الإنسان والذات الإلهية) لا يحدث مع الأجسام بالطريقة الحسية المتعارف عليها، وإنما بصورة مباشرة مع الله التي تتحد به العقول ويشارك جسدها في نوره الإلهي (divine light)، حيث يمنحها النور والمعرفة (المصدر نفسه، صفحة ٩٢).

فكرة الله إذن لا تخرج عن مجرد رؤية أو تصوراً أو حدس الواقع اللامتناهي في ذاته وكما يتجلى للعقل الإنساني إذ أن مجرد التفكير فيه يستلزم وجود ذاته وهي قضية لا تقل يقيناً عن حدس الكوجيتو الديكارتي «أنا أفكر إذن أنا موجود» إن ذلك يعني أن معرفة الله، طبقاً لمذهب (مالبران) - تقتضي استناداً روحياً إلى حقائق الدين والتسليم الإيماني، فلا يمكن تصور وجوده إلا عن طريق (الرؤية في الذات) (Avison in one self) أو بمعنى (مالبران) (رؤية الله) (Vision in God) (المصدر نفسه، صفحة ٨٩).

وهنا نجد شبه كبير بين (مالبران) و (ديكارت) حيث أكد (ديكارت) على «أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس» وهو يقصد بذلك أن العقول جميعاً تساوي في حصولها على النور الفطري الذي منحه الله لها تساوى أنصبتها في الحصول عليه في حال إرشادها بقواعد سليمة تعصم الذهن من الوقوع في الخطأ فيصبح الإله عند (ديكارت) وهو الضامن ليقين المعرفة العقلية وصدقها، هو نفسه الذي يمنح النور والموهبة والذكاء عند (مالبران)، فالإله هو المصدر الأساسي والمنبع الأول الذي تتحد فيه العقول وتستمد من نوره الأزلي الذكاء والقوة والمعرفة (رواية عبد المنعم، صفحة ٩٣).

ونجد أن (سبينوزا) قد جعل من الله والموجودات شيئاً واحداً لكنه رأى أيضاً أن الإنسان هو تحول من تحولات الفكر الذي هو صفه من صفات الله اللامتناهية حيث يفقد الإنسان تعاليه الذي اكتسبه من الكوجيتو الديكارتي ويصبح تحولاً كباقي التحولات اللامتناهية

التي تترتب على صفات الله. وعندما أصبح الفكر صفة لا جوهرية لم يعد الإنسان هو نفسه ذاتاً متميزاً ومتعالياً عن باقي الذوات وأصبح ذاتاً مساوياً لباقي الوجود (العلمي، ٢٠١٥، صفحة ١١٧)

المحور الرابع: (العقل والمعرفة)

لازال طريق (مالبراناش) مستمراً في البحث عنه الحقيقة في ظل الرعاية الإلهية، فلم يغفل عن بيان أهمية العلاقة التي تربط بين العقل والمعرفة من خلال التعرف على العالم الذي يحيط بنا، فما هي الطريقة التي من خلالها نصل الى التفكير بشكل منظم ومنسق؟ والطريقة التي من خلالها نتوصل الى إدراك العالم الخارجي بصورة صحيحة.

نحن نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي اذا ما تعرفنا على وجود الأشياء المماثلة لأفكارنا التي نستخدمها في التفكير فيها وهذه الأفكار مفيدة للغاية ، لكن محاطة بالغموض، لأنها تضعافتراضات واقعية يصعب التحقق منها بدقة، واذا افترضنا أننا وجدنا طريقة للتأكد من صحة الافتراضات يمكننا الحصول على افضل ما في كلا العالمين (العالم الداخلي- عالم الذات والعالم الخارجي - عالم الموضوع) ، أي يمكننا تجنب الخطأ وفي الوقت نفسه نكتشف الحقائق التي تهمنا فنحن نهتم بالأفكار التي ترتبط ببعضها البعض عندما تمثل علاقات بين أشياء ترتبط بنا بطريقة أو بأخرى ، ويعتقد (مالبراناش) أن هذه أفضل طريقة يستخدمها (العقل) وهنا تتجلى أهميته في الوصول الى الحقيقة (Malbranche, 2017, p. 56). وهذا يعني أن وسيلتنا الأساسية لفهم الحقائق حول حالتنا العقلية هي الاستبطان والطبيعة للتأمل الذاتي، حيث يبدو أنها تعطينا معرفة أكثر صلة بالعقل من الإدراك الخارجي الذي يعطينا المادة، فتصبح معرفتنا بعقولنا أكثر أمناً من معرفتنا بالعالم الخارجي المادي، فالعقل « يضيء نفسه بنفسه» بطريقة لاتوجد بها في الحالات المادية (Timothy, 2003, p. 4)

وبهذا يكون هناك نوعان من العلوم الأول: يتناول الأفكار في علاقتها بعضها ببعض، الثاني يتناول علاقة الأشياء في ما بينها من خلال صورها الذهنية الأولى واضحة من كل وجه أما الثانية فلا يمكن أن تكون كذلك، إلا شريطة أن تتطابق الأشياء التي تملأنا زهواً وغروراً بما تملك من وسائل الإيضاح والبرهنة، إذن هناك علوم طبيعية تمارس دورها من خلال التجارب والحوادث التي لاتخلو من مواقع الشك (الارتباب) (جان فال، صفحة ٣٩). لذا نحن بحاجة الى عقل أكثر دقة لاستنارة واختراق وأكثر ملاءمة لاكتشاف جميع الحقائق التي ترغب في معرفتها (Malebranche, 1997, p. 529).

وهنا وصل (مالبراناش) الى حقيقة معرفية مفادها : « أن العقل يعرف الأشياء بطريقتين

فقط : من خلال الإضاءة*^٦ ومن خلال الإحساس الذي يرى الأشياء من خلال الإضاءة عندما يكون لديها فكرة واضحة عنها ، وعندما تستطيع هذه الفكرة يمكنها اكتشاف كل الخصائص التي تستطيع هذه الأشياء أن تمتلكها ، وهي ترى الأشياء من خلال الإحساس عندما لاتجد فكرة واضحة عن هذه الأشياء في حد ذاتها لكي يتم استشارتها عندما تكون غير قادرة على اكتشاف خصائصها بوضوح وعندما تعرف فقط من خلال الإحساس المشوش دون إضاءة أو دليلاً (Ibid, p. 621).

أي أننا ندرك الأشياء بواسطة العقل من خلال ما ينبثق من نور الله في العقل ومن خلال الإحساس كلما ارتفعنا عن ملذاتنا ورغباتنا كلما ارتقينا بعقولنا.

ونحن لاندرک الأشياء الخارجية في ذاتها كالشمس مثلاً لأن النفس لا تترك الجسم لتتجول في النقاء، وتتأمل الشمس والنجوم، ولا هي تتحد بالنفس هو فكرة الشمس، ومن ثم نحس الشمس سواء كانت موجودة فعلاً أو غير موجودة، فهي آتية من قبل النفس، وتمثل في الذهن، فالله هو الذي يحدثها في النفس من باب أن الأعلى هو الذي يؤثر في الأدنى، وأن ماندركه بحواسنا مباشرة من أفكار، هي أفكار الأشياء أو صورها في عقل الله (الحنفي، صفحة ٤١٥).

إذن معرفة العقل لله والاهتمام بهذه المعرفة تمثل أكمل وأسمى معرفة يحصل عليها فالله لا يرى الحقيقة كما نراها نحن، بل يراها في جوهرها، كما أننا نكون في محاولة مستمرة لرؤيتها في هذه الذات الإلهية (رواية عبد المنعم، صفحة ١٥٩).

وبالرغم من أن الله يهب مخلوقاته المعرفة بنظام الطبيعة لكنه لا يكشف لهم جميع أسرارها حتى تصبح عقولهم على استعداد دائم للخضوع للإيمان وهذا هو هدف (مالبراناش) الديني من فلسفته الذي يجعله يذهب الى الاعتقاد بأن حالة تفكير الإنسان وما يحتويه عقله من ذكاء إنما تشبه الى حد بعيد (التفكير الإلهي) من حيث أن العقل يرى الحقيقة كما يراها الله تماماً (المصدر نفسه، الصفحات ١٥٩-١٦٠). لكن كيف يستطيع العقل الوصول الى الحقيقة التي يحتويها التفكير الإلهي؟ كيف يمكن للعقل الوصول الى ذلك النور الصادر من الله.

يعتقد (مالبراناش) أن عقل الإنسان محدود لا يستطيع فهم ما يتضمن في اللانهائي (Mal-ebbranche, p. 99)

وبهذا ذهب الى إنكار قيمة الحواس في تعرفنا على الأجسام*^٧ التي نعرفها عن طريق ما

٦ يقصد بها مالبراناش بالإضاءة أي النور الذي يقذفه الله في عقل الإنسان، فنحن خلقنا من أجل الله، فأصبح الواقع الطبيعي لقلبنا يتوقف فقط على امتلاكنا للخير. Mmalebranhe: the searce fter truth, p.212 ويقارن : رواية عبد المنعم ، مالبراناش والفلسفة الحديثة الإلهية، ص ١٥٩.

٧ وهذا ما ذهب إليه أصحاب المذهب العقلي ومنهم (ديكارت) حيث ذكر في كتابه (مبادئ

يخلقه الله فينا من معاني، فنفسنا قاصرة عن خلق أي معنى منها مهما بلغت من قوة، لأن الله وحده هو القادر على خلقها، وعلى إيجادها فينا في كل لحظة فالله أذن هو خالق المعرفة ومؤسسها (رواية عبد المنعم، صفحة ١٦١). وفعل المعرفة بالنسبة للنفس يتطلب تطهيراً وتنقية من شوائب الأهواء والشهوات وذلك بتخليها من قيود البدن، ولا يحدث هذا التطهير إلا بالانتباه فهو سبيل النفس في الحصول على المعرفة، فهي ترى من خلاله المعاني التي تعد نماذج أزلية وهو ذات طبيعة إلهية (المصدر نفسه، صفحة ١٥٨). فالنفس هي الجوهر الروحي الذي يمدنا بالأحاسيس النورانية من هنا تنبثق لدينا أفكار واضحة ومتميزة، لكن نفسنا التي تنطوي على هذه الأفكار الواضحة والمتميزة والتي تبصرها، هي ليست في حقيقتها سوى ظلمات، وهنا يقول (مالبراناش): «لست، أنا نفسي، سوى ظلام في ظلام وعندما أنطوي على نفسي فلا يخالجنني سوى شعور أعمى، ليس فيه شعاع من «ضياء»، ويستطرد (مالبراناش) فيقول: «أعرف الله بفكري معرفة واضحة جلية، أما نفسي فلا أعرفها سوى أحساس غامض، مظلم»، أي أننا نعرف الله حق المعرفة لفكرنا، أما عن نفسنا فمعرفتنا بها تكون غامضة إلا من خلال معرفتي بالله (جان فال، صفحة ٣٧).

ويؤكد على أن (الله والنفس) هما أفكار لا وجود لها على صعيد الواقع لأنها توجد فكرة مماثلة لها، فما موجود سوى فكرة الامتداد المعقول، وهنا يتبين لنا عمق الفكرة وهو يرتقي متدرجاً وبطريقة لا تختلف كثيراً عما تنبأه (أفلاطون)^٨ من الالفكرة الى الفكرة، فالما هو فوق الفكرة (المصدر نفسه، صفحة ٣٨)

وهذا يعني أن الوسائل المعرفية لمعرفة كل ما هو قادر على معرفته موجوداً دائماً في العقل، وإذا فشل في إدراك هذه القدرة، فإن الخطأ يكمن في عدم الاهتمام المتعدد بالوسائل المعرفية. أن بحثنا عن الحقيقة -على حد قول (مالبراناش) - لا يتعلق بالبحث عن شيء غائب عن الأنظار، ولا بنبأه، بقدر ما يتعلق بتحقيق ما هو موجود لدينا بالفعل. (Male-branche, p. XIII).

(الفلسفة) أن التجربة تدلنا على أن الحواس خادعة وثقتنا تكمن في العقل، وهذا ما يدعوا الى الشك فيها. أنظر: رينه ديكرات: مبادئ الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٨٩.

٨ وفي ذلك يقول أفلاطون في جمهوريته: « وإذا قابلت الصعود الى سطح الأرض ورؤية ما عليها من الأشياء بارتقاء النفس من سجن جهلها الى العالم العقلي الأعلى فأنت حينذاك تلمس ظنوني ما دمت ترغب في معرفتها والله وحده يعلم اصحيتها هي أم لا. وعلى كل فإن الرأي الذي اخترته بهذا الشأن يتمشى على ما يأتي: أن « صورة الخير » الجوهريّة في عالم المعرفة هي حد أبحاثنا وآخر ما يمكن فهمه ولكن متى ما أدركناها لا يمكننا إلا أن نستنتج أنها في كل حالة أَل كل ما هو جميل وباه. ففي العالم المنظور تلد النور وربه، وفي العالم العقلي تمنح بمطلق سلطانها، الحق والعقل: أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ت: حنا خباز، مكتبة النهضة، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٢٠٥.

والبحث عن الحقيقة يتطلب الكثير من التحمل وكل ما يلزم هو أن ننتبه الى الأفكار الواضحة التي يجدها كل واحد منا في نفسه وأن نتبع بدقة القواعد العديدة التي سنقدمها فيما بعد. وبالتالي ينتج النور وتكشف لنا الحقيقة (Ibid, p. 1) والخيال الذي يمتلكه العقل لا يعتمد على أي أجزاء مادية، أي الغرائز الحيوانية ، وأما يتمسك بها فهو بحاجة الى كشف التغيرات المختلفة التي تطرأ على عملية المعرفة (Malberanche, 2017, p. 20).

أي أن (مالبرانش) أكد على ضرورة الخوض في العقل لكي نصل الى بواطن المعرفة المكنونة فيها وهنا تكمن أهمية تلك الفلسفة العقلية في الجانب المعرفي. وهنا نجد الأثر الاوغسطيني الذي تركه القديس أوغسطين على فكرة مالبرانش حيث جعل أوغسطين المعرفة الباطنية أساسا للمعرفة الى جانب المعارف الأخرى التي تقوم على الحواس وشهادة الأعيان، إذ أنه قال « نعرف أننا نحيا » وأعرف « أني أريد أن أكون سعيداً » ومكرراتها التي لا تحصى مقارنة بين ادعاءات المعرفة المكررة التي تتعلق بعالم الباطن (ماثيوز، ٢٠١٣، الصفحات ٧٢-٧٣) المحور الخامس: العقل والأخلاق

لما كان الله هو الذي يحدث الأفكار، وهو يقابل أفكار النفس بعضها البعض وأفكار النفس تُفعل حركات الجسم، وهذه الحركات لا تتم إلا من خلال (الإرادة). فإن الإرادة عند (مالبرانش) قائمة على (العقل) (Mind) ومذهبه الأخلاقي أساسه (العقل) وأساس (العقل) هو قانون الإرادة الذي نتصل به عن طريق الله ، وهذا القانون يوجد فيه نوعان من النسب بين الأشياء نسب مقدار (Amonunt ration) ونسب كمال (Per-fect Proportions) الأولى تتعلق بالعلم، والثانية تتعلق بالنظام الذي يمثل قانون العقول في تقديرها للأشياء ومحبتها لها ، ومن ثمة يصبح قانون الإرادات ومنبع الأخلاق ، فتتجه محبة المخلوقات الى الله أولاً وفوق كل شيء لأنه الكمال المطلق ثم الى المخلوقات كل حسب نسبته ، أي درجته من الكمال (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨٢) ويقارن (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، صفحة ١٠٤).

وما يحصل عليه ذهن الإنسان من الكمال والخير في اتحاده بنور الخالق، ومن ثم يصبح حصول المخلوقات على الخير، واتجاهها نحوه يقتزن باتحادها بالذات الإلهية التي يستحيل على النفوس الإنسانية ومآذجها أن تتمثلها، لأنها هي التي خلقتها بإرادتها الحرة وبقدرتها اللامتناهية على خلق وحفظ الوجود، ومنهجه القدرة على الحركة (المصدر نفسه، صفحة ٩٣).

فالذات الإلهية تمتلك الإرادة الحرة والقدرة الخارقة في الخلق وفي منح الهبات للإنسان،

لكن هل الإرادة التي يمتلكها الإنسان هي إرادة حرة.

في حقيقة الأمر أن الإنسان بطبعه يميل إلى الخير، وحب الخير (The good) مطبوع فيه، قد يواجه الإنسان، في حياته ظروف صعبة، أو يمكن أن يكون مقيداً بإحساسه أو محرّكاً لأفكاره، فكيف يتصرف إزاءها.

يعتقد (مالبرانش) أن الإنسان يمتلك القوة على الرفض، وأن لديه الإحساس الداخلي (inner feeling) بأنه يستطيع أن يرفض كل ما يقيد أو يوجه إرادته إلى ما ليس خيراً، فإذا كان الله هو الفاعل الوحيد، فإن الخير وكل الكائنات تنسب إلى الله، وتتفاوت الموجودات بنسب التفاضل بما فيها من نسب الكمال الإلهي، وتتوجه إرادة الخير إلى الموجودات كلاً بحسب نسبته من الله ودرجته من الكمال، ولعل هذا الاختلاف هو السبب في اختلاف الأخلاق (الحنفي، الموسوعة الفلسفية، صفحة ٢١٥) وذلك لأن إرادة الله تصف المخلوقات بالخير والمحبة، لأن هاتين الصفتين تحفظهم وترعاهم لمجده الأعلى، الذي هو الغاية الأساس لذاته والتي لا دخل لحرية الإنسان ولا لإرادته فيه (المصدر نفسه، صفحة ١٩٨).

ولذلك طرح (مالبرانش) على أن « الآثار التي تثيرها في الدماغ تثير الأفكار في العقل، وأن الحركات التي تثيرها الأرواح الحيوانية تثير العواطف في الإرادة، فمن الضروري أن نفهم أن سبب كل هذه الروابط المختلفة منبعثة من (الله)، فهناك أشياء لا نستطيع تفسيرها حتى وأن كان هناك (عقل) مهما كانت قدرته لا يستطيع أن يكتشف من خلال التأمل فيها المزيد من الحقيقة التي قد يستنتجها أكثر البشر بلاغة في العالم (Malebranchne, p. 101).

وكان نتيجة لذلك هو أن الإنسان أفسد عقله وقلبه بالأشياء المادية التي أصبح متعلقاً بها، وبفساد قلبه جعل عقله مظلماً بإبعاده عن النور الذي هو (النور الإلهي) (Male-branche, p. 20).

من هنا ربط (مالبرانش) العقل بالأخلاق، من خلال القوة المغروسة في داخل الإنسان والتي زرعها الله فيه، وهذه القوة تتمثل بالإرادة التي لها حرية الاختيار في الإقدام على الخير واجتناب الشر.

لكننا نتساءل هل غاية (مالبرانش) من الأخلاق هو نشر الخير والفضيلة والسلام أم الوصول إلى الحقيقة.

يجيب (مالبرانش) عن هذا السؤال قائلاً: «أننا لا نرى على نحو مماثل في بيان مدى استفادتنا من حريتنا في قبول الحق، وهذا يجعلنا نعتقد أن الموافقة على الحقيقة ليست تطوعية، ولكي نميز بوضوح رضى الإرادة عن الحق ورضاها عن الخير، لابد من معرفة

الفرق بينهما وهذا الفرق يكمن في أن الخير يؤثر فينا بينما الحقيقة لا تؤثر فينا. الحقيقة تكمن في علاقة الاتفاق بين الأشياء معنا ونتيجة لذلك لا يوجد سوى فعل واحد من أفعال الإرادة فيها يتعلق بالحقيقة (Malberarcho, p. 9) .

إذن كلما اتجه الإنسان الى فعل الخير والابتعاد عن فعل الشر كلما اقترب من الذات الإلهية، ويمكن من نشر المحبة والفضيلة وبالتالي أنغرس الخير في ذواتنا، أما الحقيقة فهي لا تؤثر فينا إلا من خلال تعاملها مع الأشياء وانسجامها معنا.

وهنا تكمن قدرة العقل على تحقيق (الخير والفضيلة) ورفض ما ينجم عن الحس من معرفة وسلوك يتسم بالبطلان والخداع (رواية عبد المنعم ، صفحة ١٨٧) . لذا أصر (مالبراناش) على توثيق العلاقة بين (النفس والله) واتحادهما مع البعض والتقليل قدر المستطاع من مقدار خضوع الروح للجسد وهو اتجاه يهدف الى دخول جميع المخلوقات في مجتمع واحد مع الله عن طريق ما يخلقه العقل الإلهي (صوت الله فيهم) من أحكام وعلاقات كمال والتمييز يمكن الروح والجسد يتعلق بمسألة (الخطيئة) التي أهتم بها (مالبراناش) اهتماما كبيرا في موضوع (الأخلاق) (رواية عبد المنعم، صفحة ١٩٦) فكانت الفضيلة في موضوع الأخلاق عنده لها دور مميز ، فهي تنتج في مخيلة من حولنا أو من يعتبرنا على نحو اقرب أنها تنير فينا كل الدوافع التي تميل الى الحفاظ على وجودنا والى زيادة عظمتنا ، لذلك يحافظ الناس على سمعتهم كخلقة جيدة يحتاجون إليها ليعيشوا حياة مريحة في العالم (Malebranch, 1997, p. 290).

إن التزام الناس بالقواعد الأخلاقية وتوجيههم نحو تطبيقها ما هو إلا رجوعاً الى العقل الخالص (Pure reason) ، الكلي الموجود فيهم ، الذين يسعون إليه متساوين في مقدار حبه ، عاملين بهداه ومقتضيين بأوامره (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨٣) .

فالعدل إذن هو صوت الله فينا، من لا يخفي إليه يقع في الخطأ والخطيئة، ويحكم على الأشياء بعقله الخاص لا بالعقل الكلي الموجود فينا كجزء إلهي يستطيع استكشاف النظام بالرغم من اختلاف تكوين العقول بالتربية والعادة وظروف المكان والزمان وهذا الاختلاف هو السبب في اختلاف الأخلاق (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، صفحة ١٠٤).

إذن الإرادة عند الإنسان هي الأثر المتصل الصادر عن صانع الطبيعة والموجه للنفس نحو الخير، وإذا ما نظرنا في حرية الإرادة أثبت الحرية بشهادة الوجدان، وبما قال من أن موضوع الإرادة الخير، فمتى ما كان هذا الحال هكذا كان في استطاعة الإنسان أن يمتنع من محبة أي خير جزئي لقصور الخيارات الجزئية عن استنفاد كفايته للمحبة وإرضاء إرادته كل الرضا، ثم يضطر الى القول بأن الاختيار فعل صوري فقط أو جعل باطن عاطل من الفاعلية (كرم، تاريخ الفلسفة، صفحة ١٠٣).

إن العقل عندما ينظر الى نفسه، يرى أنه لا شيء ينقصه السعادة والكمال أو يرى أنه لا يملكها يرغب فيه، وعندما ترى سعادتها تشعر بالفرح وعندما ترى تعاستها، حزنها فهو يتخيل على الفور أن إدراك سعادته هو الذي ينتج هذه الفرصة فيه لأن هذا الإحساس يرافقه دائماً الإدراك (Malobranche, p. 311).

فالله خلق الإنسان في البداية عادلاً وبلا عيب وجعله حراً فذلك لأنه أراد من دون أن يهمل ما يدين به (الله) لنفسه، أن يجعل الإنسان سعيداً، حتى بعد أن أخطأ الإنسان وأستحق غضب الله، فإن الله لا يزال يستطيع أن يحبه بالكثير من الصدقات والخير (Malebranche, p. 100).

ولكي يتم تنظير الأشياء بشكل جيد، يجب أن تشعر الروح بالسعادة بما يتناسب مع مقدار الخير الذي تتمتع به، فالسعادة^٩ هي غريزة طبيعية، أو بمعنى أوضح هي انطباع من الله نفسه يوجهنا نحو خير ما، (Ibid, p. 19).

فالإرادة هي الدافع الأساسي لكل شعور بالقلق والرغبة في الخير الذي يملكه القدر، لا يمكنه أن يسمح للعقل بأن يعيش لفترة من الوقت في حقائق مجردة لا تؤثر عليه ويحكم بأنه غير قادر على إسعاده. وبالتالي فإنه يحث العقل باستمرار على التفكير في أشياء أخرى، وعندما يواجه العقل في سياق قيادته بالإرادة شيئاً يحمل علامة الخير أي يجعل وجوده النفس تشعر بالرضا الداخلي ويعتقد (مالبراناش) أن فراغ الأشياء المخلوقة لا يمكن أن يملأ القدرة اللامتناهية وذلك لأن هذه الملذات التافهة بدلاً من أن تروي عطشهما تزيد من حدسها وتعطي الروح الأمل العقيم في أن تشبع بتعدد الملذات الأرضية، وهذا يؤدي الى المزيد من عدم الاستقرار والضعف الذي لا يمكن تصوره من جانب العقل الذي يتمثل واجبه في العثور على هذه السلع للنفس (Malebranch, p. 212).

وبهذا يصبح الكمال هو قانون الإرادات والأخلاق وتتجه هذه الإرادة الجزئية (الفردية) التي تتمثل في المخلوقات التي خلقها الله، وهي متجهة في محبتها الى الله، ومن ثم تنشأ الفضيلة التي تعني محبة النظام (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨١).

هكذا تتوالى موضوعات الأخلاق في فكر (مالبراناش) من خلال الصراع بين الدنيا وملذاتها والدين، بين الخير الدائم والشر العارض، وسيادة المحبة ثم نشر (الخير والحرية)، وهذه كلها موضوعات (دينية روحية) تؤسس مذهباً (أخلاقياً دينياً ومثالياً) (المصدر نفسه ،

٩ لقد اهتم أوغسطين بمفهوم السعادة وقد خصص كتابه (مدينة الله) و (الاعترافات) و (رسالة في الثلاث) وكان تصوره عن السعادة تجريبي حيث حث المرء على القيام بكل ما في وسعه لكي يصبح سعيداً، في حين أن امتلاكه للسعادة كان ذات تصور صوري وكذلك تصور صوفي - روحي في حياة الفكر والتأمل الفلسفي المحض . وفي هذا نجد أثر أوغسطين على فكر مالبراناش. جاريث ماثيوز، أوغسطين، ص ٢١٢-٢٢٧.

وبهذا شهدنا كيف أستطاع (مالبراناش) أن يضع العقل ضمن قانون الإرادة التي هي الفيصل النهائي لكل أفعالنا الأخلاقية.

الخاتمة

لقد توصلت من خلال بحثي هذا الى النتائج التالية:

بين (مالبراناش) قدرة وقيمة العقل الذي يمتلكه الإنسان في أن للعقل قدرة فائقة لأنه هبة من الله وهبها للبشر وهو به يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات إذ ما أستخدمه بالصورة الصحيحة.

العقل يستطيع أن يرتقي ويسمو بمجرد التركيز على محرك الأفكار ومحاولة اختيار ما يناسبه، فما يحتوي عقل الإنسان من ذكاء يشبه الى حد كبير (التفكير الإلهي) لأن العقل يرى الحقيقة كما يراها الله - بحسب اعتقاد مالبراناش - عندما يتعلق بالله.

العقل يدرك كل الأشياء بواسطة (الحضور الباطني) الذي وهبه الله له.

نحن نحتكم من خلال العقل لأنه يدخل في باطن أنفسنا فهو عقل كلي لأنه مستمد من الله فهو من صنع، فهو النموذج ومن خلال الأفكار التي كونها في العقل والتي أوجد الله فيه القدرة على تكوينها نعرف الأشياء المادية (فكرة العالم المتجسد).

العقل هو الذي يمتلك حرية الإرادة فهو قادر على الاختيار والتمييز بين الحق والباطل أو الخير والشر، فإذا ما اختار الخير كان أكمل من بقية البشر ونشر الحب والفضيلة ونشر السلام في المجتمع، وكم نحن بحاجة الى مثل هكذا عقل في أيامنا هذه في ظل فقدان الإنسان للمعاني السامية الراقية التي تنبثق من العلة الأولى واللامتناهية.

السعادة الحقيقية التي يصل إليها العقل الإنساني هي أن الله قد جعل الإنسان حراً لأنه أراد له ذلك، حراً في اختيار أفعاله في اختيار احتياجاته وبالتالي تقرير مصيره، ومعنى هذا أنا الإنسان هو الذي يصنع لنفسه السعادة، فما عليه إلا أن يختار، وهذا ما أكد عليه علماء النفس والتنمية البشرية.

المصادر والمراجع

١. إحسان علي الحيدري: فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠١٣.
٢. أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ت: حنا خباز، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.
٣. أوغسطين: مدينة الله، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت- لبنان، ٢٠٠٦.
٤. جاريث ماثيوز: أوغسطين، ترجمة: أيمن فؤاد زهري، دار أفاق للنشر والتوزيع، القاهرة،

٥. جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر، ت: مارون خوري، منشورات عويدات ، لبنان - بيروت ، باريس ، ط١ ، ١٩٦٨.
٦. جميل ، صليباً، المعجم الفلسفي ، ج٢، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان، ١٩٨٢.
٧. رينيه ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.
٨. رينيه ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة: سفيان سعد الله، سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١.
٩. رينيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠.
١٠. رواية عبد المنعم: مالبراناش والفلسفة الإلهية، تقديم: محمد علي أبو ريان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٦.
١١. زكي مجيب محمود وأحمد أمين: قصة الفلسفة الحديثة، دار الفضل للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠١٩.
١٢. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ب.ت.
١٣. فرانسو أديدال: معجم الفلسفة الميسر، ت: جورج سعيد، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
١٤. فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، منشورات مكتبة النهضة ودار القلم، بيروت - لبنان، ١٩٨٣.
١٥. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٧.
16. Inidgo Companions of Philosophy, cosmopublications, New Delhi, India, 2002.
17. Malebranche, Nicolas : Dialouges on Metaphysics and on Religion, Copyright, Jonathan Bennett, 2017.
18. Malebranche: the search after truth, Thomas M. Lemon and Paul J. Deseqmp, printed in Great Britain at the university of Cambridge, 1997.
19. Timothy O'somnor and David Robb Philosophy of mind, Contemporary Readings, London, 2003.

